المقدمة

بقلم الأديب والمفكر معالي الدكتور

عبد العزيز بن عبدالله الخويطر

وزير الدولة

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب:

تُعَدُّ العربيةُ من أوسع اللغات مَدًى، وأغزرهنّ محتوًى، وأوسعهنّ اشتقاقاً، وأعظمهنّ مرونةً، وأطوعهنّ استعمالاً. فهي لغة الصيغ الكثيرة، والمرَادفات الوافية التي تدلّ على الغنى والاتساع.

والناظرُ المدقِّقُ في العربية، المتمرس بها يدركُ أنّ الصورة التي وصلت إليها هذه اللغة الشريفة لم تكن وليدةَ المصادفة، وإنما مرّتْ قبلَ ذلك بمراحلَ من التطور والنمو، ولا بدّ لها من وجوهٍ وصورٍ تتقلّب بينها في الاستعمال، وجهاً بعد وجه، وصورةً إثر صورة، تتناقلها الألسنةُ ارتجالاً أو اشتقاقاً أو نَقْلاً، إلى أنْ تأخذَ واحداً من وجوهها، وصورةً من صورها، بعد أن تجاوزتْ مراحلَ طويلةً انتهتْ في آخرها إلى النضج والاكتمال.

إنّ هذا هو التمدنُ اللغوي عَيْنُهُ.

وغَيْرُ خافٍ أنّ تكوينَ اللغةِ بما اشتملتْ عليه من غنًى واتساعٍ وقوةٍ وجمال أمرٌ من الأمور الهامة التي ترفعُ اللغةَ إلى مصافِّ اللغات المتمدنة الراقية.

ولا أحد ينكرُ أنّ اللغة، أيَّ لغةٍ، إنما يتمثَّلُ غناها بألفاظها، وباتساعِ وجوهِ التصرفِ فيها، وبوجودِ خصائصَ وأساليبَ تجعلها قادرة على التعبير عن المفاهيم العامة والخاصة، لتكون بعد ذلك كلّه وسيلةَ تفاهمٍ، وأداةَ تعبيرٍ، تحوِّلُ المعقولَ إلى منطوقٍ ومكتوب، وكلُّ هذا من الدلائل التي تشير إلى مدنية اللغة ورقيِّها.

وعربيتُنا لغةٌ راقية متمدنة، ولولا هذا الرقيُ ما كانت أهلاً لأن تحمل البيانَ السماويَّ المعجزَ، الذي لا يدانيه بيانٌ، ولا يسمو عليه أثر.

لولا رقيُ العربيةِ ما استطاعت أن تُواكبَ الحضاراتِ، وما قدرت على التعبير عما يجولُ في أذهان عباقرتها ممَّنْ أبدعَ مصنفاتٍ ومؤلفاتٍ تناولت العلومَ والفنونَ والآدابَ في فتراتٍ كان العقلُ والفكرُ الغربيان نائميْنِ عاجزَيْنِ عن الإبداعِ، وليس على النحوِ الذي كانت عليه العربية خلال أكثر من عشرة قرون.

صحيح أنّ العربَ كانوا يعيشون في جاهليتهم حياةً بدويةً قاسيةً جافيةً، تتحكّمُ فيها صحاريهم بما احْتَوَتْ عليه من جفافٍ وعصبية قبلية، وشيءٍ غَيْرِ قليلٍ من التخلّف والأُميّة، لكنّهم بالنظر إلى الأممِ الأخرى التي كانت تعايشهم، وبالنظر إلى آدابهم المأثورةِ عنهم، من شعرٍ وحِكْمةٍ وخَطابةٍ، يُعَدُّونَ أقربَ إلى التحضرِ الفكري من تلك الأممِ التي عاصروها.

وحسبُنا أنْ نرى الكمالَ في أتم صورِهِ في هذا الشعر الجاهلي، الذي وصل إلينا الكثيرُ منه صحيحاً.

لقد عُرِفَ عن العربيةِ أنَّ لها نظاماً لغوياً دقيقاً لم يخرجْ عليه شاعرٌ أو حكيم أو خطيب، وكان هذا النظام يتسمُ بالفصاحةِ والبيانِ والبُعْدِ عَمَّا عُرِفَ فيما بَعْدُ باللَّحْنِ.

لقد كانتْ للعربِ في هذا النظام اللغوي الدقيق أساليبُ من الكلام، استعملوها في حياتهم، ومَرَنُوا عليها في أشعارِهم وخطبِهم، بعضُها كان على الحقيقةِ، وكثيرٌ منها كانَ على المجاز.

كانت هذه الأساليبُ من سُنَنِ العربِ، استعملوها في كلامهم نثراً وشعراً، في الجاهلية والإسلام، واعتمدوا فيها على اللمحة والرَّمْزِ والإشارة.

وما من شكٍّ في أن هذه الأساليب لم تستقمْ على ألسنتهم إلا بَعْدَ انصرافِهم إلى صنعةِ الكلامِ بتنميقه وتهذيبِ حواشيه.

لقد صدروا في هذه الأساليب عن تفنّنٍ في إطلاقِ العباراتِ، واستعمالِها وهذا لم يَتَأَتَّ لهم إلاَّ بَعْدَ كمالٍ وانسجام في صنعةِ الألفاظِ، واتقانٍ لها.

وإذا كانوا يعتمدون في هذه الأساليب على اللمحة والرمز والإشارة، فإنهم كانوا يخالفون فيها، أو في كثير منها ظاهرَ اللفظِ، وهذا ما أَطْلَقَ عليه علماؤنا (نظامَ القرينةِ) أو أنّهم جعلوها في النثر كأبيات المعاني في الشعر، أو سمّوْها (كلماتٍ يقع التحاجي بها)[1].

إنَّ لهم في هذا النظام بدائعَ كثيرةً، كوّنتْ في تراث العربية أساليبَ وتراكيبَ متوارثةً استعملوها، ومازلْنا نستعملُها، أو نستعملُ الكثيرَ منها حتى الآن.

منها مثلاً أسلوب (أُسْقِطَ في يده) المستعمل للتعبير عن الندم و(وَيْلُمِّه) للتعجب، و(تبّاً له) و (هَلُمَّ جرّاً) و (كائناً مَنْ كانَ) وغير ذلك كثير..

إن الكثيرَ من هذه الأساليب يرتبط بواقع ديني أو اجتماعي أو سياسي. ويستعمل بعضها في مواقف ترتبط ببعض الظواهر الاجتماعية كالزواج والولادة والطلاق والعَزَاءِ وفَتْح محلٍ للتجارة وغَيْرِ ذلك.

كما يُستعمل بعضُها الآخرُ للمَدْح أو الذَّمِّ أو الشَّتْمِ، وكثيرٌ منها جاء للدعاءِ

---

(١) انظر في ذلك كتاب (أسرار العربية) للعلامة المرحوم أحمد تيمور باشا، ص١٥٥.

للرَّجُلِ أو للدعاءِ عليه، أو لإظهار الاستعطافِ أو الندمِ أو الاستحسانِ أو التأنيبِ أو الاستنكار أو التكرُّهِ أو الاستقذار أو الشِّجار والقتال والدعوة إلى الحرب أو التحريض أو الإغراء أو التكذيب أو الإعذار أو التوبيخ أو الاستسلام أو التفدية أو الإنذار أو التطيّرِ أو التأسف أو التوجُّع أو الاستعاذة أو التهديدِ أو الشماتةِ أو التنزيه أو الاسترزاقِ أو الاستملاح أو الحثِّ أو التحسر أو الزَّجْرِ أو إفحامِ الكاذبِ أو تحيةِ الملوكِ وخاصةِ القومِ أو تحيةِ العامةِ منهم.

هذا بالإضافة إلى طائفةٍ كبيرة من أساليب الأَبَديّات، وهي التي يُعَبَّرُ فيها عن استمرار حدوث الفعل وأبديته.

إنّ عدداً كبيراً من هذه الأساليب يمرّ بنا في القرآن الكريمِ أو في الحديثِ الشريفِ أو في كلامِ الشعراءِ والبلغاءِ والخطباءِ، ونقف أمامها عاجزين عن فهمها، غَيْرَ قادرين على الوصول إلى معانيها.

فنجد منها في كتاب الله: (أرأيتَكَ) و (أولى لك) وهي للتهديد و(هل لك إلى...) و (حِجْراً محجوراً) وغير ذلك.

ونجد منها في الحديث الشريف: (مهيم) و (اللَّهُمَّ غَبْطاً لا هَبْطاً) و (عَقْرَى حَلْقَى) وسوى ذلكَ.

كما نجدُ منها في شِعْرِ العربِ ونَثْرِهم: (ليت شِعْري) و (لا زالَتْ يمينُكَ آشِرةً) و(هَوَتْ أُمُّه) و(لليَدَيْنِ وللفمِ) و(هَبِلَتْكَ أُمُّكَ) و(حيّاكَ اللهُ وَبيَّاك) و(عِمُوا صَباحاً) و(عِموا ظلاماً) و(بَرْحٌ بارِحٌ) وغَيْرَ ذلك مما لايُفْهَمُ معه النثرُ أو الشِّعْرُ إلاّ إذا عُرِفَ الأسلوبُ وشُرِحَ وفُصِّلَ القولُ فيه معنًى وإعراباً ووجوهَ استعمالٍ.

إنّ طائفةً كبيرة من تلك الأساليب جاءتْ على صورة تراكيبَ تنوّعتْ أجزاؤُها بَيْنَ الاسمِ والفعل والحرف كالتركيب: (أَجَدَّك لا تفعل كذا).

وطائفة أخرى منها جاءتْ على صورة مصادر سماعية، وأخرى مصادر دُعائية، وهي التي كان يرى سيبويه أنّ الدعاءَ فيها بمنزلة الأمر والنهي، وإنما قيل له دعاءٌ لأنه استُعْظِمَ أنْ يقال: أمْرٌ وَنَهْيٌ[1].

لقد ذكر سيبويه في كتابه عدداً كبيراً من هذه المصادر الدُّعائية مثل: (هنيئاً لك) و(سَقْياً ورَعْياً) و(وَيْبَكَ) و(وَيْحَكَ) و(وَيْلَكَ) وغير ذلك كثير[2].

كما أنّ طائفةً ثالثة من تلك الأساليب كانت تقوم على أسماء تحمل معنى الدعاء، وقد عُومِلتْ معاملةَ المصادر، لأنها جَرَتْ في الاستعمال مَجْرىَ المصادر، مثل: (تُرْباً لكَ) و(جَنْدلاً لكَ) وغير ذلك.

وثمّة نوع آخر من تلك الأساليب، كانَ يقوم على جُمَلٍ اسمية أو فعلية، ويُراد بها الخبر أصلاً، لكنّها تحوّلتْ عنه إلى الإنشاء حين أُريد بها الدُّعاء.

إن هذه الأساليب وتلك وتلك، وردتْ مفرّقةً عند علمائنا في كتب التراث، كتب اللغة والنحو والأدب والأمثال، وتناولها لغويونا بالدرس والتحليل، وقام بينهم فيها حِوارٌ وحِجاجٌ، لكنّنا لم نعهدْ كتاباً واحداً جمعها، أو عالماً فذّاً رصدها وتناولها بالدرس والتحليل، اللهمَّ إلا بعضَ الجهود التي بذلها بعضُ العلماء، في رسائلَ دوّنوها كما فعل ابنُ هشام الأنصاري وابنُ عابدينَ وشيخُ الزبيدي صاحِبِ التاج والسيوطي.

---

(١) كتاب سيبويه: ١/ ١٤٢.

(٢) كتاب سيبويه: ٣/ ٨.

إننا نقع في بعض الرسائل على عدد قليل جداً من تلك الأساليب، كما في رسالة ابن هشام (رسالة توجيه بعض ألفاظ، استعملها المؤلفون)، إنّ بَيْنَ عشرة ألفاظ في هذه الرسالة لفظاً واحداً من هذه الأساليب هو الأسلوب (هَلُمَّ جَرّاً) .

وفي رسالة ابن عابدين (الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة) نجد خمساً وعشرين كلمةً قامت عليها الرسالةُ، لكنّ القليل منها كان من تلك الأساليب مثل: (هلمَّ جَرّاً) و(كائناً مَنْ كانَ) وأكثرُ هذه الكلمات لم يكن من تلك الأساليب أو التراكيب، بل هي كلمات جاءتْ منصوبةً سماعاً كتلك الألفاظ التي أوردها ابن هشام في رسالته. ونجد بين المصنّفين مَنْ خصَّ أسلوباً واحداً برسالة كاملة، وقد نجد أكثر من عالم تناول واحداً من تلك الأساليب بالدرس والنظر والتحليل[1] .

ونقع في كتاب واحد على عددٍ لا بأس به من تلك الأساليب، فابنُ الأنباري في كتابه (الزاهر) يحشد أكثر من ثلاثين أسلوباً منها، ويكون بذلك من أكثر مصنّفينا حَشْداً لتلك الأساليب.

وغَيْرُ خافٍ أنّ (الزاهر) لم يؤلَّفْ ليجمعَ أساليبَ العربِ وتراكيبَها، بل كان غرضُ صاحبِه منه تفسيرَ كلماتٍ من القرآنِ والحديثِ والشعرِ وكلامِ الناسِ ودعائِهم وأشباهِ ذلك ، لكنّ ابنَ الأنباري تعّرض من خلال موادّ كتابه لعددٍ من تلك الأساليب.

والعّلامةُ المحققُ أحمد تيمور باشا –رحمه اللهُ– تناولَ في معجمه القيِّم (أسرار العربية)ثمانية أساليب في فصل صغير عقده في معجمه وسماه :(كلمات يقع

---

(١) انظر أسلوب (هلمّ جرّاً) الذي سيأتي في باب الهاء في كتابنا هذا.

التحاجي بها وهي كأبيات المعاني)[1] .

وجمع ابنُ يعيش في (شرح المفصل) قَدْراً لا بأس به منها، وكذلك فعل الاستراباذيُّ والسيوطيُّ .

كما أنّ المرحوم عباس حسن ذكر بعض هذه الأساليب في كتابه العظيم (النحو الوافي) ونَبَّه إلى ضرورة جمعها واستقصائها .

وأستاذنا المرحوم رفيق فاخوري كان واحداً ممّن أدلى بدلوه، فقد تناول بَعْضَ الأساليب في كتابه القيِّم (معجم شوارد النحو)، لكنّه تناوَلَ القليلَ منها تناوُلَ المُسْرِعِ العجلان، وكان اهتمامه بالأدوات أكثر .

وقبل أكثر من عشر سنوات نشر الدكتور ابراهيم السامرائي كتابه (من أساليب القرآن) في أقل من ١٥٠ صفحة، درس فيه سبعة معانٍ لأساليب كثيرة حَشَدَها، وكانت معانيها تدور حول : (الدعاء والنداء والقَسَم والتوكيد والتعجب والتفضيل والمدح والذم) لكنّ دراسته لمعاني تلك الأساليب كانت نحويةً، ذكر من خلالها قدراً طيباً من تلك الأساليب، إلاَّ أنَّ ذكرَهُ لها كان عابراً، إذْ لم يقف وقفة تأملٍ ومُدارسة عند واحدٍ منها، لأن ذلك لم يكن هدفَه من كتابه، وإنما هَدَفَ إلى تناول المعاني اللغوية والنحوية الاصطلاحية لكل طائفة تدور حول معنى من المعاني السبعة التي قام عليها كتابه .

وصدر حديثاً كتابٌ جمع فيه صاحبه عدداً من تلك الأساليب، والكتاب هو : (الإعراب الكامل للأدوات النحوية) لمؤلفه عبد القادر أحمد عبد القادر، وقد

---

(١) أسرار العربية ص:١١٥ .

انطلق الأستاذ المذكور في كتابه من كتاب أستاذنا المرحوم رفيق فاخوري، فلم يخرج عنه في شيء سوى توسعه في بعض مواد كتابه، ويكاد ينحصر عمله في الأدوات، وقد أخطأ كثيراً حين ساق بعض تلك الأساليب ضمن ما أورده من الأدوات، وهي ليست منها في شيء.

هذا ما استطعنا الوقوف عليه من أمور هذه الأساليب، وما أُلِّف منها، أو كُتب عنها. ويبقى الكثيرُ الكثيرُ منها مفرَّقاً في بطون الكتب، يشقى الباحثُ كثيراً حتى يصل إليها، ويلاقي في البحث عنها ضروباً من العَنَتِ والمشقّة والإرهاق.

ولقد صحَّ العزم – بعون الله وتوفيقه – منذ أكثر من عشرين سنة على تتبع هذه الأساليب، وجمعها من مظانّها الحديثة والقديمة، ودراستها وتبويبها وترتيبها وفق نظام ألفبائي يأخذ بالحرف الأول من أول كلمة في الأسلوب، مع مراعاة ما بعده من الحروف في الترتيب.

لقد عمدت في كل أسلوب أو تركيب إلى تَتَبُّع كلِّ ما يحيط به، بمعرفة تاريخ استعماله – إن أمكن – وتحديد جاهليته أو إسلامه، وتقصّيه في القرآنِ الكريم والحديثِ الشريفِ وشِعْرِ العربِ ونثرِهم قديماً وحديثاً، وجَمْعِ أقوالِ العلماء فيه، وبَسْطِ آرائهم واختلافهم حوله، مع الاهتمام بذكر المعاني الخاصة به، واستعمالاته ولُغاتِه –إن وُجِدَتْ– وأجزائه، وإعرابه. ولم أدَّخِرْ جُهْداً في توضيح ما أَشْكَلَ منها، وما خَفِيَ معناه ووَجْهُ استعماله. فإن كنت أَصَبْتُ في عملي هذا فلّله الحمدُ والشكر على حُسْنِ توفيقه، وإنْ تكنِ الأُخرَى، فهذا منِّي، وهو جهدي، وهو عند نفسي جهدُ المُقِلّ، وقديماً قال الشاعر:

إنَّ جَهْدَ المُقِلِّ غَيْرُ قليلِ

ولكنْ ... حسبي أنّني اجتهدت، وفوق كُلِّ ذي علمٍ عليم... «رَبِّ أَوزِعْني أنْ أشكرَ نعمتكَ التي أنعمْتَ عليَّ وعلى والديَّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاه وأَدْخِلْني برحمتِكَ في عبادِكَ الصالحين».

والحمد لله ربِ العالمين

كتبه:

محمد أديب عبد الواحد جُمران

حمص في: ١٩/من ذي الحجة/١٤٠٩هـ

٢٢/تموز/١٩٨٩م.

obeikandl.com